

غذاء عائلى

" من يعطينى شخصا ينصت الى "

فيما مضى كنت صاحب مكتبة ثم أصابنى مرض طويل ابعدينى عن أى نشاط اليوم أنا وكيل المنتجات الدوائية وأكسب من هذا العمل ما يجعلنى اعيش بلا زيادة أذهب وأجىء حاملا حقيبة مليئة بالعينات أبدا لن تهدنى الهموم تماما ففي القلب ربطت زورقا اهرب فيه دائما من كل شىء لاشعر بالحرية من جديد .

تقطن إبنتى وأنا مدينه على حافة البحر المتوسط صاحبة مليئة بالحركة لامعة كالؤلؤ بعد أمطار نادرة ولكنها غزيرة تتصادم فيها الاصوات والالوان والأفكار وهذه النعمة المزدوجة تروق لى .

في الصباح الفاتت وأنا اتجول مع حقيبتى عكست صورتى واجهه محل المبتكرات لم يكن أنطوان مخطئا فشعري كان طويلا حقا قال لى برنة إستنكار الى حد ما " لك مظهر فنان ! "

أنطوان إبني صبى جاد مستقبلة يشبه دليل المسافر وإمكانياته ملموسة تماما لدرجة أن صاحب البنك بعد تعيينه نائبا للمدير قرر أن يزوجه من إبنته إنى اتساعل عما فعلته لكى ينجح مثل هذا الابن ؟ فبينما أطوى اليوم بقدم على الارض وذهن شارد يتقدم أنطوان دون جراح بخطوات محسوبة

عندما كان صبيا كنت أمثل شيئا بالنسبة لأنطوان كانت قامتى تفرض نفسها عليه بلا شك وكان ينقل حركاتى كان يتسلق ذراعى ويدعونى " جبله " وبرغم أنه لم يصل أبدا الى طولى أصبح على الان أن استدعى له صورة قصير الساقين الدقيقة عندما أتكلم لا يستمع الى ابدا وعندما يتكلم انصت اليه فهن يرى أن الافق يلمس والاحاسيس توزن وما الحياة بالنسبة له سوى لعبة لا تستقيم بفيها الحسابات أما أنا فكلما عرفت اكثر كلما ازدادت جهلا وكلما نظرت الى الحياة قلما رأيتها آمنه كان سيدمر أمنى لو كان عندى أمن !

أنطوان على حق فالشعر المسدل على القفا يعطى شكلا غريبا قررت على الفور قصه كان على إبني أن يقدمنى في اليوم التالى الى اسرة زوجته – وكان مترددا في الاقدام على ذلك حتى الان ولم أكن ارغب في مضايقته بأى طريقة سأدخل إذن أول صالون حلقة يقابلنى

في الداخل أربعة حلاقين ولا زبون واحد حيا صاحب المحل مقدمى بصوت جهورى بهدف إنتباه الثلاثة الآخرين وتحريك ركودهم

وفي لحظة احسست أنى وضعت وضعا على المقعد الدائرى وقد غطى كتفى بقوطة بيضاء والتفت حول عنقى فوطة أخرى تدلت حتى صدرى وعلى الفور أخذ المقص يققع

ترغب بالتأكد في حلقة جيدة

هكذا قال صاحب المحل وهو رجل بدين دمت ذو شارب شمعى

أثنى بعد ذلك على جودة نوعيه شعرى بقوله :

كثير من الشباب يحسدونك عليه

فكرت على الفور بأسف بالغ في صلح أنطوان المبكر

ستشرب قهوه بالطبع

قالها بعد فترة في الوقت الذى عاد فيه أحد معاونية حاملا فنجانين ساخنين على صينية من الصفيح

شربنا القهوه ونحن نتبادل اطراف الحديث كان كما بدا يسافر كثيرا فسألته عددا من الاسئلة أجاب عليها بسعادة غامرة لكن عندما التقط مقصه من جديد فهمت أنه كان في حاجة الى الصمت وهكذا نسيت رأسى بين يدى هذا الرجل البشوش وغرقت في كوم الجرائد التى وضعت بحذر على ركبتى .

إنتهت الجلسة وأنا لازلت متأثرا بما قرأت – طفل عاملته زوجة أباه بشراسة وحبسته على مدى أسبوع كامل في غرفة مظلمة – نسيت النظر التقليدية الى المرأة وسألت :

كم تطلب ؟

ما تريد

فبالاسعار في بلادنا تختلف تبعا للذوق والفرصة والتوقيت ولما كانت لى طبيعة خجلة جردت نفسى بطريقة سيئة من هذه الحرية الجلية

ولكن ...

فأردف الرجل بقوله مضاعفا إرتباكى :

لايمكن أن يحدث ذلك بيننا

وضح إرتباكى اكثر عندما أشفق على محدثى وهو يسوق رقما بدا لى غاية في التواضع وماكنت أجرو حينئذ على الاصرار فقد تأثرت تماما وأنا اكتشف أننى كنت الزبون الوحيد في ذلك الصباح وعندئذ رجوته إضافة ثمن القهوة الى الحساب لكنه غضب هذه المرة :

إنك تهيننى تدخل عندى لأول مرة ونتحدث كما لو كنا صديقين أبديين ومع هذا تحاسبنى على ثمن قهوتى

شكرته وكلى خجل ثم صافحته بحرارة وأنا أعده بالعودة مرة أخرى

قال الرجل وهو يصحبني حتى العتبة

أنت هنا في بيتك

البنك الذي يعمل به إبنى كان يوجد على بعد أبواب من الحلاق وكانت صدفة طيبة تلك التي سمحجت لى
بملاقة أنطوان وهو خارج

ما أن لمحني حتى أطلق صيحة :

أى رأسى صنعوه لك ! ياعجوزى المسكين شىء مفزع إنك تبدو على هيئة

فهمت من منظره أن مسأله غذائى مع أسرته لم تعد قائمة وأن أنطوان أصبح مشغولا في البحث عن سبب
معقول لتخلفى وعلى هذا إبتعد بسرعة وهو يستدير مرة أو مرتين حتى يتأكد من أننى لا أتبعه

أحسست بفخذى ثقيلتين وتمنيت لو تركتاني أسقط في إنتظار صبى – يشبه أنطوان في طفولته – يضع يده في يدى
ويساعدنى على الوقوف

شخص ما كان ينادينى

خذ نسيت هذه

كان هو الحلاق الذى سعد تماما بالعثور على يناولنى حقيبتى أما الضربة الودية الخفية التى ربت بها على
كتفى بعد ذلك فقد أعادت الى حركتى

قلت له

أنا وحدى هلا أردت أن نتناول معا طعام الغداء ؟

وحددت له المقهى – المطعم في مواجهتنا حيث الموائد تفيض على الرصيف فوافق قانلا

الوقت الذى يستغرقه إغلاق المحل وأجىء

عبرت المطلاع كنت أشعر بحرارة الجو فالشمس المزروعة فوق المدينة كانت تتخذ شكل جمجمتى التى لم تعد تدافع
عن كتله شعرى

ومن حيث كنت أجلس كنت أطل على البنك وأيضا على محل صديقى الجديد

كنت وأنا أنتظرة أحمل نظرى لعدة مرات من البنك الى المحل والزورق يرتفع بهدوء بالغ .